الطائر الاخضر

قصة بقلم يحيى يخلف

« أنا الطير الاخضر
بمشي وبتمختر
مرت أبوي ذبحتني
وأبوي أكل من لحمي
ولما طلع القمر
صرت طير أخضر »

ـ من حكاية شعبية فلسطينية ـ

●

الهدير .. المدينة .. الضوء .. اشارات المرور .. الماكسي .. تغمض عينيك ، تطبقهما كما لو انك ترى العالم للمرة الاخيرة .. واربد تنز عرقا ساخنا من جلدك ..

الماكسي .. صالون الحلاقة .. الكتب المحنطة وراء الواجهة .. الموسم المسرحي .. مسافر في المطر ..

أطعميني كل ما تدخرينه لي من جـــوع ، وكلما جف حلق شوكت اعطيه ثديك ، وبللي بقطراته عروقه ..

ـ أبو عاطف .. غير معقول !!

امطرك القادم بقبلاته .. لكن ، ليس ثمة ما يجعلك تحييه بنفس البشاشة .

ـ لم يكن يخطر ببالي انني سأراك بعد المذبحة .. كيف نجوت ؟ سؤال عتيق فقد من كثرة التكرار طزاجته ..

ـ كيف الشباب ..

مثـل كرات الدم البيضاء والحمراء تنفل صورهم في دمك ، واذا لم يتفجر الصمت ، فسوف تذرفهم دموعا من عينيك ...

ـ علاء وعبد العزيز وخالد ينتظرونك في كافتيريا الجامعة ..

الجامعة .. المحاضرات .. ملعب كرة السلة .. غالية ..

شوكت : قطرات من الحزن المعتق ..

هتف على غير انتظار :

ـ ما أخبار غالية ؟

عبس الآخر ، وقال باقتضاب :

ـ احترق دمها ..

هز رأسه ، ومددت يدك اليه :

ـ حسنا .. سأراك فيما بعد .. الى اللقاء ..

اشارة المرور من جديد .. توقف تدفق السيارات ، واندفع سيل من البشر لعبور الشارع ..

بعيدا عن اربد ، تاكلني لا مبالاة الاشياء .. لماذا لا نستقـــر رصاصة ما .....؟

ـ كيف نجوت ..

في زمن الحصار ، لا أحد ينجو .. الظل والبراءة .. لا .. ولا حتى شوكت عبد اللطيف ..

سائق تاكسي يتوقف .. الى أين ؟ الجامعة مثلا ..

ثمة رذاذ خفيف يتساقط على الزجاج ، تمسح السيارة عينيها.. تمسحهمـا حتى احمرار عينيك .

على الرصيف ماكسي وميني ، وراء الواجهة زجاجات بلاك انـد وايت .. ومن مذياع ما النواس يعانق الخيام ..

وهناك أنتم .. في القبور الجماعيه ومعتقلات القمع تلحس الرطوبة جراحكم المتقيأة ، فواخجل الذين ....

ـ الجامعة ..

قال السائق ، انتابني احساس حاد وصارم ، كما لو انهـا المرة الاولى .. لم يتغير شيء ، وعرفت قدماك طريقهما دون ابطاء الـــى الكافتيريـــا ..

وقفوا وقفة رجل واحد .. واحتضنوك كما لو انك عدت لتـوك من سطح القمر ..

تحلقوا حولك .. علاء ، ازدادت نظارته سماكة .. عبد العزيز ، ازداد طولا ونحافة .. خالد وجهه سمين كالعادة ..

ومن جديد : ـ كيف نجوت ؟

وعبد العزيز ، بلا لهجة مسرحية ، لاول مرة :

ـ أيها القادم من مجزرة أربد .. حدثنا .

وخالد قال بتأثر :

ـ عشنا على أعصابنا أياما قاسية .. لم نكن نتوقع رؤيتك .

وأما علاء ، فقد سأل فجأة :

ـ ما هي أخبار شوكت ؟

أحسست بالدماء تندفع في كل اتجاه ، وطافت عيناك في أرجـاء القاعة الواسعة ، ولكن ، كم هو العالم صغير من خلال الفبش ..

ـ ان غاليه هذه الايام كالسمكة في المقلاة .. لا بد انك أحضرت اخبارا جيدة عن شقيقها شوكت ..

شوكت !!.. النجمة المجروحة التي تنزف دما الى ما لا نهاية .. اذا تحدثت عنك ، فكيف أحبس الـــدموع في حلقي ؟ أقول لكم ..

لا تسألوني .. لقد قتلوه .. مثلوا بجثته وأنفاسه تتساقط ..

ارتفعت حواجبهم ، فيما ارتسم على ملامحهم حزن لا يطاق ..

ـ شوكت قتل .. أين ومتى وكيف ؟

ـ ...

ـ تكلم ..

ـ لا أستطيع ..

ـ ستأتي غاليه بعد قليل يجب أن تتكلم ..

دفنت وجهك .. كيف ستحدثهم .. أقول لكم .. استمعوا الـي جيـــدا ..

ـ كنا معا في المخيم حين عبرت الدبابات وهي تطلق قذائفها في كل اتجاه ، وتجتاح في طريقها البيوت ..

ـ .....

ـ كانت الذخيرة قد نفدت تماما من جعبتنا ، فقررنا الاختفاء في أحد البيوت المهجورة .. وبعد أن اختبأنا تذكر شوكت ان ثمة جريحا وسط الشارع ، فقرر أن يعود ويحمله ..

ـ ؟ ؟ ؟ ؟

ـ في تلك اللحظة كانت الدبابات قد وصلت ، فعالجه الجنـدي الذي على برجها بصلية رشاش ، فخرّ صريعا ..

ـ ! ! ! ! !

ـ ثم تقدم منه بعض الجنود المشاة ، كان منكفئا على وجهه ، ركله أحد الجنود بقدمه ، فانقلب على ظهره ..

عندها رفع الجندي السونكي وغرسها في فمه ، فارتعش جسـده كما لو كان طائرا مذبوحا ، وفي الوقت نفسه اندفع الدم كالنافورة ، وغطى ملامح وجهه .. ثم همد فجأة ..

وجوهكم مرايا .. لا أستطيع أن أحدّق بتعابير وجوهكم ، حين تطعمني اربد كل ما تدخره لي من جوع ، سأدفع عيني الى وجوهكـم ولا أعود أتذكر زجاجة بلاك اند وايت ..

حلقي مجروح منذ أن شق نصل حربتهم لهاة شوكت . وأما الآخرون ففي معتقل (الجفر) ينز الصديد من آثار التعذيب في جلودهم ... هل تسمعون صوتي ؟

* * *

صمت ، كما لو طائرا أسود يرفرف فوق الرؤوس ..

اقبلت غاليه من بعيد ، فقال علاء كما لو انه ينشج :

ـ يجب أن لا تعرف غاليه ذلك الآن ..

ثم توقف ، كأنه يلتقط أنفاسه ، وأضاف :

ـ حذار من أن تقرأ شيئا في ملامحكم ..

همس عبد العزيز بصوت طفل يبكي تحت اللحاف :

ـ لا أستطيع .. سوف أذهب .

قال علاء : ـ نذهب معا ...

وقفوا ، وتظاهروا بتوديعك ، ثم انسحبوا ...

وصلت غاليه ، مدت يدها وصافحتك ، لكن صوتها يشي بالحيرة والاسى .. لم تقو على أن ترفع عينيك الى عينيها .

جلست أمامك ، كانت صورتها مـن الخلف تنعكس على المرآة ، شعرها المنسدل أسود ، ثوبها أسود .. رفعت رأسك الى وجههـا .. نسخة طبق الاصل من وجه شوكت لكنه محتقن .. داكن .. وعيناهـا سوداوان محروقتان ..

قالت بصوت لا يمت اليها :

ـ حمدا على السلامة ..

أحسست كما لو انني أتلقى تعزية ، وماذا بعد ذلك ، ستمـر ملايين السنين الضوئية قبل أن يصل صوتي الى حنجرتي ..

ـ كيف الاخوان ..

ماذا وراء السؤال ، لعل أحدا أخبرها ، ولعلها تنتظر أن أبادرها الحديث .. وبيننا يمتد حبل صمت مذبوح ..

ـ لا بد انك سمعت تفاصيل ما حدث في الاذاعات والصحف .. لكنها لم تسمع ما حدث لشوكت ، غير ان شيئا ما يجعلك تحدس ان قلبها يحدثها ..

ـ قيل لي انه معتقل .

قالت ذلك ، وانعجنت ملامحها ، وازداد وجهها الداكن ضراوة .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

دون ان تفارق نفس النعابير وجهها قالت :

ـ ذهبت أمس الى درعا وقابلت أحد القادمين ..

لم يقو ذلك القادم على مصارحتها بالحقيقة ، ولعله أحس تجاهها بالاشفاق ، والآن .. عليك أن تدعها تعتقد ذلك .

ـ أجل انه في المعتقل ..

فاضت عيناها ، ثم أخرجت منديلا من حقيبتها ، وجففت دموعها.

ـ حدثني كيف تم اعتقاله ؟

أحدثك عن المجزرة .. هل تتحمل مشاعرك الرقيقة مجرد سمـاع ذلك .. أيتها المرأة الحزينة .. الحزينة للغاية ..

ـ في وقت آخر .. سأقص عليك ذلك .

وفجأة .. تدفقت بالنشيج ..

* * *

الهدير .. المدينة .. الضـــوء .. اشارات المرور .. تغمض عينيك .. تطبقهما كما لو انك ترى العالم للمرة الاخيرة .. واربد تنز عرقا ساخنا من جلدك .. من العروق الحمراء في عينيك .

ـ هذا القمر من فضة ، لكن هالته من خيش .

ـ الحصان الجامح قفز من (الجرينيكا) وهرب الى الخلاء ..

ـ تلك المرأة أنجبت ثلاثة أطفال ولا تزال عذراء ..

ـ في اربد اغتصب ثلاثون جنديا امرأة فلسطينية ..

ـ أبو عاطف .. ألا تشعر بالجوع ؟

ـ أشعر بالجوع والظمأ والتعب في آن ..

ـ هل ندخل ذلك المطعم .

طبق اليوم .. الرجال اللامعون ، والنساء الانيقات .. والطاولات واللاعق وابتسامات الانيكيت المنتظمة ..

ومن الطابق الثاني ، تندفع السيارات ، ورغم اشارات المرور فان بضعة رجال يخاطرون بعبور الشارع ..

ـ لا بد من اعادة ترتيب الاشياء ..

ـ كيف ؟

ـ لا بد من اعادة النظر في كل شيء ..

طبق اليوم ، ملوخية بالدجاج.. اقترب الجرسون تسبقه ابتسامة مرسومة جيدا .. لا أستطيع الا أن أتذكركم أيها الرفاق.. أنتم هناك.. بعيدا .. في الجفر .. وأما شوكت فانه يخطر بالنفس في كل حين ، وكلما نشطت الريح فانه يرفرف سخونة في دمي ..

ـ أنت شارد الذهن .. لماذا توقفت عن الاكل ؟

مسحت فمك بمنديل ورق ، وكففت عن المضغ ..

ـ يجب اعادة تشكيل الاشياء من جديد ..

ـ أما زلت متفائلا ؟

ـ الغضب يجتاحني .. أصمت ..

ـ وكيف يمكن اعادة ترتيب الاشياء ؟

بدأ الصراع الرهيب يأكل دماغي .. اعذرني من الاستمرار فـي الحديث .. وهيا ..

ـ الى أين ؟..

ـ الى بيتكم ..

ـ ان غاليه تنوي ترتيب محاضرة لك بالاتفاق مع اللجنة الثقافية .

ـ لا اريد ..

ـ لكن الحديث ...

قاطعته بحدة : ـ ارجوك .. بدأت الاشيـــاء تبدو مغبشة فـــي عيوني ..

ـ اذن .. هيا .

من جديد .. الضجيج .. الشارع .. اشارات المرور .. وفـــي عينيك تتهدم ابراج ، وينفجر بركان بالحمم المحرقة .. وعلى الواجهات الزجاجية تبدو الاسياء بلا أبعاد ..

علاء يسمطيل ويبدو مثل ضفدعة هرمة ...

وجاء من أقصى المدينة شبحك يسعى ، يعبر الحـدود خلسة .. يترنح .. يعبر المدينة .. يسوخ في الاسفلت .. يندلق على الرصيف فطره .. فطرة .. ينبخـر .. آه .. ينبخر ..

* * *

فتحت عينيك كما لو انك خرجت لتوك من بئر مظلمة .. تململت ، فوخزني الالم من كل اتجاه ، وشيئا فشيئا بدأت الاشيـــاء تنضح .. الجدران البيضاء ، السرير الابيض .

أقبلت الممرضة تسبقها ابتسامة ما ...

وضعت ميزان الحرارة في فمك ، وأخذت تحدق بك دون أن تغارفها الابتسامة ..

ـ أصدقاؤك كانوا هنا ، وانصرفوا قبل ساعة ..

ما الذي حدث .. وكيف ..؟

عادت تقول :

ـ تقرير الطبيب يقول انك مرهق جدا بسبب الاجهاد والتعب .

خطر لك أن تسأل بعد لحظات ، لكنهـا مدت أصابعها ، وسحبت الميزان من فمك ، ورفعته أمام عينيها ، وانتابك ذلك الاحساس القلق الذي تحس به كلما قابلت الطبيب :

ـ درجة حرارتك تتحسن ، لكنك تحتاج الى راحة تامة .

ثم نفضت الميزان وأعادته الى حافظته ، وسألتك قبل أن تستدير :

ـ هل تحتاج الى خدمة ؟

ـ أريد أن أراهم عندما يعودون .

هزت رأسها وأجابت :

ـ حسنا .. اذا سمح الطبيب .

خرجت ، ومن جديد ، ما الذي حدث ، كيف سقطت على الرصيف، وكيف تجمهر الناس ، وكيف نقلوك ؟..

قربك كومة صحف ، عناوينها حمراء دامية ..

المجزرة .. الاشتباكات في جرش .. قصف مخيم سوف بالمدفعية ..

ومن وراء النافذة تتحرك ذوائب الاشجـــار .. السخونة تلهب جلدك ، ورأسك يستند الى حافة السرير ..

في رأسك دوار .. دوار .. اشتباكات الى ما لا نهاية ..

سونكي تلتمع تحت الشمس ، تنفرز في اللهاة ببطء ..

وجهك غير الحليق مرعب ، وقميصك كان مبلولا بالدم ، اختفيت عند تلك المرأة العجوز ... ظلت تقرأ عليك تعاويذها ، خبأتك فـــي صندوقها العتيق بالقبو عندما دخل الجنود للتفتيش ..

في اليوم التالي ، وحين انتصف الليل ، ودعتهـــا .. بكت .. ذرفت دموعا صامتة غزيرة .. لم تكن تعرفك ، لم تكن تعرف حتـــى اسمك ، وعندما طوتك الظلمة ، تلفت قلبك ومشاعرك وكل نبضة فـــي عروقك .

طرق الباب ، وأطل من ورائه رأس غاليه ..

سرى ، من قمة الرأس الى أخمص القدم ، احساس مجـــروح ينزف بغزارة ..

أقبلت .. ملامحها صافية ، كما لو أن صفاء الغرفة انعكس عليها، وربما لان فستانها الأسود يعطي ذلك البعد النقي الذي يطل من عينيها وجبينها .. والايشارب الازرق الذي يخفي شعرها ..

مدت أصابعها وصافحتك ..

ـ سلامتك ..

هززت رأسي ، لاحظت انها تحمل بيدها باقة ورد وزجاجة عصير.

قالت بنفس الصوت الحزين الصافي :

ـ سمعت صباح اليوم فقط عن مرضك المفاجيء ..

جلست على الكرسي الى جانبك ، ظللت صامتا لا نجد ما تقول .. سألتك بعد لحظات طويلة :

ـ بماذا تفكر ؟

ـ لا شيء ، قبل قليـــل ، كنت أفكر بتلك المرأة العجوز التـــي خبأتني ..

اشارت لك بالصمت قائلة :

ـ لا تفكر بهذا الآن ، قال الطبيب بأن عليك أن ترتاح .

ـ لقد أوصتني أن أعلمها اذا وصلت الحدود السورية سالما .

انفعلت كما لو انها تود أن تبكي ، وقالت :

ـ لقد وعدت الطبيب بأن لا أزعجك ..

أغمضت عينيك ، وتذكرت بانك آنت المطالب بعدم ازعاجها .. فاصمت ...

لحظات مرت .. كم .. لا تدري .. لكن ، أحسست بيدها تلامس شعرك .. وحين فتحت عينيك كان بيدها كوب عصير ..

وضعت أصابعهـــا خلف رأسك ، وحاولت أن تسندك ، شربت ، وأنت تحاول التحديق في مـــلامحها ، وبعد ذلك ناولتك منديل ورق لتمسح فمك ..

شوكت عبد اللطيف .. أيها العزيز الـــذي لن يعيده البكاء ، لا أستطيع الا أن أتذكرك في كل حين ، وهذه المرأة لا تدري ان نصـل السونكي قد غاص في حلقك حتى النهاية .

عندما جحظت عيناك ، وسال منهما الدم : وكم يرهبني ذلك الموقف الذي سيواجهني عندما تعرف انني أخفيت عنها الحقيقة ...

غسلت الكأس ، وعادت تجلس على الكرسي من جديد ...

خطر لك أن تتأملها ، عقدت كفيها في حجرها ، وأسبلت عينيها .. الحزن يضفي على وجهها شحوبا شفافا .

لماذا تتذكر الآن وأنت تحدق بملامحها حكاية الطائر الاخضر ؟

« أنا الطير الاخضر ... بمشي وبتمختر ... مرت أبوي ذبحتني، أبوي أكل من لحمي ... وأختي لملمتني ... ولما طلع القمر .. صرت طير أخضر » .

من وراء النافذة ما زالت ذوائب الاشجار تتحرك ومزيج عصيـــر البرتقال يمتزج باحساس حاد بالحيرة ...

انفتح الباب وأطل من ورائه وجه الممرضة ، أقبلت بيدها حقنة .

ـ حان موعد الدواء .

كشفت ذراعك ، اقترب رأس الابرة المدبب ، ثم غرزتها في الوريد، وحانت التفاتة الى غاليه ، فومضت السونكي في خيالك .

سحبت يدك سريعا ، فارتبكت الممرضة ، وسقطت الحقنة من يدها ، وسالت محتوياتها على الشرشف الابيض ..

رسمت الممرضة على شفتيها ابتسامة .. وأقبلت غاليه تساعدها في رفع الشرشف واستبداله ـ حسنا ..

قالت الممرضة : ـ سأعطيك بدلا منها في المساء .

وبعد خروجها ظلل المكان صمت كئيب ..

وأحسست بأنفاسه ترفرف في الغرفة ، وان الجدران تتسع وتتسع ، وتصبح مدى رحيبا يحتضن الطائر الاخضر ..

قالت غاليه وهي تحدق بأصابعها المعقودة في حجرها :

ـ انك تخفي عني شيئا ..

اجتاحتك رغبة شديدة في البكاء ، لكنك تقاوم ...

كان الطائر الاخضر يرفرف بعنف في ملامحها .. في أهدابها ..

لا بد من اعادة ترتيب الاشياء من جديد .. كل الاشياء ..

رنّ جرس الهاتف ..

لم تمتد يد الى السماعة ، وظل الرنين ، يثير الاعصاب حتى التوقف ..

وقفت ، واتجهت الى النافذة تحدق بالفراغ الازرق ..

خيل اليك انها تحدق بشيء ما في الفضاء المكبل .

عاد رنين الهاتف من جديد ..

استدارت ، لم تقو على أن ترفع عينيك الى عينيها ..

مدت أصابعها ، وتناولت سماعة الهاتف ..

ـ الو ..

قالت تخاطبك : ـ انه علاء .

هززت رأسك .. لا أرغب في الحديث ..

ـ الو ..

قالت تخاطبك : يسأل عن صحتك وعن موعد خروجك .

ـ الو ..

قالت تخاطبك : يسألون عن الموعد الذي تستطيع فيه التحدث في الندوة ..

هززت رأسك .. لا أرغب في الحديث .. لا أرغب .

ـ الو .. يوم السبت القادم ..

أعادت السماعة ، أغمضت جفونك من جديد ..

كيف يمكن اعادة ترتيب الاشياء من جديد ، عندما تلملم نفسك سريعا ستجد الجميع بانتظارك .

تناولت حقيبتها ، كيف تحافظ هذه المرأة على اتزانها رغم هذا الحزن ؟

قالت تخاطبك : أنا ذاهبة ..

مدت يدها تصافحك ، أحسست بأصابعها ساخنة في كفك ..

سحبت يدها ، وخطت باتجاه الباب ..

رفرف الطائر الاخضر في أعماقك ، وأحسست بأنها تخفي عنك دموعا تفيض من عينيها ..

أغمضت عينيك ، وحين فتحتهما ، كانت قد اختفت وراء الباب..

ومن النافذة ، تدفقت موجة من الهواء الساخن كأنفاس الطائر الاخضر ...

يحيى يخلف

دار الآداب تقدم

كارل ماركس

تأليف

روجيه غارودي

ترجمة : جورج طرابيشي

« يستقطب ماركس وتراثه اليوم مشاعر الامل والغضب عند الناس اجمعين ، ويمثل فكره ، بحب أو بسخط ، سؤالا ووعدا وكفاحا بالنسبة الى البشر جميعا والطبقات كافة والامم قاطبة .

ذلك ان هدف هذه الفلسفة هو تغيير العالم ، وليس فقط تغيير الفكرة التي نملكها عنه ... فقد ازاح ماركس النقاب عن الفلسفة بوصفها تعبيرا عن عمل البشر وصراعاتهم ، ونزع ايضا قناع الفلسفات التي كانت تزعم انها تحلق فوق هذا العمل وهذه الصراعات ، وكشف الممارسات والسياسات التي انيطت بتلك الفلسفات مهمة تبريرها او تمويهها .

لقد اصبح فكر ماركس الوعي الفاعل لعصر بأكمله . فهو يعلمنا كيف نستخلص قانون التطور التاريخي لعصرنا ، ويساعد كلا منا على ان يعي معنى حياته ومعنى المستقبل الذي يحمله في طوايا نفسه ، ومعنى مسؤوليته تجاه هذا المستقبل .

ان فكر ماركس يبدو اليوم ، بالنسبة الى انصاره وأعدائه على حدّ سواء خميرة الاختمارات الانسانية قاطبة في القارات الخمس . فهو يستدعي لدى بعضهم مشاعر الحقد واللعنة ، والاضطهاد والمحارق البشرية على نطاق لم يعرفه التاريخ قط ، ويثير لدى الجماهير الغفيرة التي وجدت فيه منفذا للنجاة ومعقدا للرجاء اندفاعة معجزة نحو البطولة والتضحية .

وما اخذه هذا الكتاب على عاتقه هو محاولة تفسير تلك الواقعة الهائلة » .

صدر حديثا الثمن : ٥٥ ق.ل.